تحليل المعاني المضمرة في أمِّ الكتاب

Analyzing of the Implicit Meanings in Umm al-Kitab (Surah al-Fatiha)

أ.د عباس علي الفحام

Prof. Dr. Abbas Ali Al-Fahham

العراق / جامعة الكوفة / كلّية التربية للبنات

IRAQ / University of Kufa / College of Education for Women

abbasq.hussein@uokufa.edu.iq

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

مُلخص البحث:

الحمد لله رب العالمين وأتم الصلاة والتسليم على النبي الأمين وآله الطيبين الطاهرين.

تحاول الدراسة تقديم معالجة تحليلية للمعاني غير الظاهرة في سورة الفاتحة، فجاءت بعنوان (تحليل المعاني المضمرة في أمِّ الكتاب)، متخذةً من منهج التحليل وسيلة كشف ووصول لتلك المعاني، ومحاولة قدر الاستطاعة الابتعاد عن اجترار التفسيرات وتكرارها، ولا ريب في أنّ المنهج التحليلي من أقدر وسائل الكشف والغوص إلى خبيئات المعاني واستجلابها؛ لما له من قدرة على توظيف العلوم المختلفة في خدمة المعنى القرآني.

وقد قدّمت الدراسة المعاني المضمرة بأربعة أشكال هي على التوالي:

أوَّلًا: مضمرات البسملة.

ثانيًا: مضمر العدول

ثالثًا: المضمر التوحيدي

رابعًا: المضمر الوظيفي.

وعلى عادة المنهج العلميّ دوّنت الدراسة أهم ما خلصت إليه من نتائج محدّدة ومختصرة، كانت المكتبة التفسيرية عدتها في الوصول إلى خلاصاتها ونتائجها، ولا ريب في أنّ البحث محاولة بشرية للوقوف من جديد قدر المستطاع على النص الإلهيّ المعجز لأفهام البشر، ولا تدعي الدراسة إتيانها بالجديد قدر محاولتها إلقاء دواعي الانتباه إلى أنّ في السورة ما تزال ثمّة درر غائصة في بحر الإبداع المعجز تحتاج عدة أخرى غير اعتيادية لاستخراجها، عسى أنّ نهتدي إليها وننتفع وننفع بها المتلقّين، داعين من الباري التوفيق لذلك فإنّه هو سبحانه ولي التوفيق وبه ومنه الرجاء، وآخر دعوانا أنّ الحمد لله ربِّ العالمين.

الكلّمات المفتاحية : المعاني ، المضمرات ، أمّ الكتاب

Abstract

Praise be to Allah, the Lord of the worlds, and may peace and blessings be upon the trustworthy Prophet and his pure progeny.

This study attempts to provide an analytical processing of the implied meanings in Surah Al-Fatiha. It is entitled "Analysis of the Implied Meanings in the Umm-ul-Kitab". The analysis method is followed in the study as a means of uncovering and accessing these meanings avoiding ruminating and repeating established interpretations. Undoubtedly, the analytical approach is one of the most effective means of discovering and exploring the hidden of meanings and bringing them to light because it employs various sciences to reach the Qur'anic meaning.

The implied meanings in the study are presented in four forms, namely:

1. Implied meanings of Bismillah
2. Implied meaning of Al-'Adl (the Just)
3. Implied meaning of Tawhid (Oneness of Allah)
4. Implied functional meaning

The study reaches to the most important specific and concise findings by following the scientific method depending on the exegetical books for the Holy Qur'an.

There is no doubt that this study is a human attempt to study the divine miraculous text in order to make it understandable as much as possible. And it also seeks to draw attention to the fact that there are still hidden treasures(meanings) in the sea of miraculous creativity in the Surah that require unusual tools that the researcher uses in order to reach the desired goal.

Keywords:The Meanings, The Implicit , Umm ul Kitab.

المدخل:

اختصت سورة الفاتحة بأسماء كثيرة مستلّة من روحها، كفاتحة الكتاب لافتتاح المصاحف بكتابتها، ولوجوب قراءتها في الصلاة، فهي كما قيل فاتحة لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة، وهي بعد أم الكتاب أو أم القرآن[1]، فقد جمعت أصول ما نزل به القرآن الكريم من توحيد وتمجيد وذكر للمعاد، ومثل السبع المثاني كونها تتضمن سبع آيات مع البسملة، يثنّى بها في قراءتها في الصلوات الواجبة، وسميت كذلك بسورة الحمد، والصلاة، والشكر، والوافية والكافية والشافية والأساس، والكنز، والرقية.

وتعدّ سورة الفاتحة من السور القصار إذا ما نظرنا إلى بناء جملها القصيرة وقلّة آياتها، وهي سورة مكية، وقيل مدنية، وقيل أنّزلت مرتين مرة بمكة وأخرى بالمدينة.

وفي تفسير السورة نقل عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: قال الله عز وجل: قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم قال الله جل جلاله بدأ عبدي باسمي، وحق علي أنّ أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله جل جلاله: حمدني عبدي، وعلم أنّ النعم التي له من عندي وأنّ البلايا التي دفعت عنه بتطولي، أشهدكم أنّي أضيف له

إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، وإذا قال الرحمن الرحيم، قال الله جل جلاله: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم أشهدكم لأوفرَنَّ من رحمتي حظه ولأجزلّنَّ من عطائي نصيبه، فإذا قال: مالك يوم الدين قال الله تعالى: أشهدكم، كما اعترف بأنّي أنا المالك يوم الدين، لأسهلَنَّ يوم الحساب حسابه، ولأتقبلَنَّ حسناته ولأتجاوزَنَّ عن سيئاته، فإذا قال: إيَّاك نعبد، قال الله عز وجل: صدق عبدي ، إيَّاي يعبد أشهدكم لأثيبنَّه على عبادته ثوابا يغبطه كلّ من خالفه في عبادته لي، فإذا قال: وإيّاك نستعين قال الله تعالى: بي استعان عبدي وإلي التجأ، أشهدكم لأعيننَّه على أمره، ولأغيثنَّه في شدائده ولآخذنَّ بيده يوم نوائبه، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، قال الله عز وجل: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، وقد استجبت لعبدي وأعطيته ما آملُ وآمنته ممَّا منه وجل)).[٢].

أشكال المضمرات:

أولا: مضمرات البسملة

البسملة جزء من السورة لأنّها تعني الاستفتاح ببسم الله على ما في غرض كلّ سورة، إذ لكلّ سورة من سور الكتاب العزيز غرض تتناوله، وكان بها يعرف الرسول ﷺ الفصل بين السور النازلة عليه من الوحي، وتحمل في مضمونها الرد على المشركين الذين كانوا يستفتحون باسم اللات ومناة والعزى، بل والرد على أهل التثليث وغيرهم ممَّا ينسب إلى الكتب السماوية، وبمقارنة بين البسملة القرآنيّة وغيرها يدرك السر في تكرارها في كلّكلّ سورة والتبرّك في ذكرها.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّها من الفاتحة وأن رسول الله ﷺ : كان يقرؤها ويعدها آيةً منها، ويقول فاتحة الكتاب هي السبع المثاني.[٣]

ونقل السيوطي قوله ﷺ: ((إذا قرأتم الحمد فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، فإنّها أمّ القرآن والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها)).[٤]

وأما تحليل تركيبها فالباء في (بسم) تفيد الملابسة والإلصاق، والاسم ما دل على مسمّى حسي أو معنوي، وأصله من السمة وهي العلامة، أو من السمو والرفعة واجتلبت همزة الوصل لتخفيف النطق، ومتعلق الظرف محذوف تقديره هنا: أقرأ، ومن هنا وجه حذف المتعلق كأنّه أريد به الاستعانة ببسم الله على كلّ فعل أو قول لتحرز الجميل منه؛ لأنّ الله

تعالى لا يصدر منه غير الجميل، وقد صحّ عن النبي ﷺ قوله: كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر الحديث. (٥)

ولذلك يتبرك باسمه تعالى، وقد نقل عن الصادق قوله عليه السلام: ينبغي الإتيان به عند كلّ أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه. (٦)

ولفظ (الله) اسم الجلالة العلم بالغلبة الدال على الذات المقدسة الواجب الوجود والمستجمع لجميع صفات الكمال الذي يوصف ولا يقبل أن يقع صفة ولا يشتق من اسمه ما يوصف به شيء منها، وأصله من أله بمعنى عبد، او من الوله وهو التحير فهو إله بمعنى المألوه المعبود، مثل كتاب بمعنى المكتوب أو بمعنى ممَّا تحيرت بمعنى ذاته العقول، وقال الراغب: ((الله قيل أصله إله فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخصّ بالباري تعالى ولتخصّصه به، وأله فلان يأله: عبد، وقيل تأله، فالإله على هذا هو المعبود، وقيل: هو من أله أي: تحير وتسميته بذلك إشارة إلى ما قال أمير المؤمنين: كلّ دون صفاته تحبير الصفات، وضلّ هناك تصاريف اللغات، وذلك أنّ العبد إذا تفكر في صفاته تحير فيها ولهذا روي: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله)). (٧)

ونعرض عن باقي ما ذكر من أصل إله الذي استند إلى معنى الاحتجاب، ولفظ الله الوحيد في مفردات العربيّة المفخّم اللام، التي تلين إذا سبقتها الكسر.

وصفتا الرحمة في صيغتي (الرحمن الرحيم) كلّاهما صفتان ذاتيتان

لاسم الله تعالى، وهما اسمان من أسمائه العُلا، واختصتا بالذكر من دون أسمائه سبحانه طلباً لرحمته في كلّ شيء التي تتضمّن التفاؤل في التوفيق، ولفظ الرحمن صيغة مبالغة في كثرة الرحمة الشاملة لأهل الدنيا مؤمنهم وكافرهم، وأما الرحيم فهي صيغة مشبهة بالفعل متضمنة معنى الثبات ولذلك صح اختصاص أهل الإيمان والتوحيد بها في الدنيا والآخرة.

والمراد بذكر الصيغتين صدور آثارهما منه تعالى؛ لأنّ حقيقتهما من الرحمة واللطف والعطف وهي انفعالات نفسية وعوارض طارئة تتنزه الذات الكاملة لله تعالى عنها، لذلك يراد بهما إثبات الغرض الاسمي من الوصف وهو إيصال الإحسان إلى مخلوقاته، وتقديم الرحمن على الرحيم مع أنّ كلّيهما من صيغ المبالغة هو من باب تقديم العام على الخاص.

ومن العجيب التعلّل بادّعاء إخراج البسملة كجزء من السورة بسبب تكرار لفظ الرحمن الرحيم، والزعم بأنّها ممَّا يخلّ ببلاغة السورة، متناسين أنّ السورة برمتها تلقين من الله سبحانه للعبد في كيفية التأدب في عبادته والثناء عليه سبحانه، وأنّها سورة عبادية زاخرة بمعانٍي الرحمة والعبادة والهداية والأخلاق في أخصر أساليب البلاغة، ومقسّمة قسمين نصف منها لله سبحانه ونصفها الآخر للعبد، ولفظا الرحمن والرحيم مقامهما الصفة الثانية والثالثة للفظ الجلالة المستحقّ للحمد.

ثانيا: مضمر العدول

السورة تعليمية من الله تعالى لعباده، تنوع الخطاب فيها من الغيبة إلى خطاب الحضور ثمَّ إلى الغائب في تغيرات دلالية واضحة حتمتها المعاني المراد كشفها، بدءا من قوله تعالى بصيغة الغائب (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين) إلى قوله سبحانه بالتفات إلى صيغة الخطاب (إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنّعمت عليهم) ثمَّ الرجوع إلى الغيبة (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

وقد علّل كثير من المفسرين أنّ هذا العدول أو الالتفات في الكلّام يعمل على تطرية السامع ويجنبه الملل لاسيما وأنّ سورة الفاتحة من أكثر السور تداولًا على الألسن يوميًا، غير أنّ ما تخفيه التراكيب المتنوعة في السورة المباركة شيء آخر، فتركيب الدعاء بصيغة الغيبة (الحمد لله) تركيب قرآني جديد ملأ الكتاب العزيز، فقد ورد في مواضع كثيرة من الآيات الشريفة، في ست عشرة سورة، بعضها مثل سورة الفاتحة افتتحت به السورة كسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر، وبعضها اختتمت به السورة كما في سورة الإسراء، وسورة النمل، وسورة الزمر، وسورة الصافات، وبعضها الآخر حكاية دعائية أفاضها الله سبحانه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام كما في قوله تعالى عن النبي ﷺ ((قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)) [النمل ٥٩] وقوله ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ

مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) [العنكبوت ٦٣]، وقوله ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) [لقمان ٢٥].

وعن النبي إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى ((الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)) [إبراهيم ٣٩]، وعن النبي نوح عليه السلام ((فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) [المؤمنون ٢٨]، وفي قوله تعالى ((ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين)) [النمل ١٥]، وهي بعد دعاء أهل الجنة نحو قوله تعالى ((وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)) [فاطر ٣٤]، وقوله سبحانه ((وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) [يونس ١٠]، وقوله سبحانه ((وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)) [الأعراف ٤٣].

وهو بهذا الاقتران بين لفظ الجلالة وبين حرف الجر (اللام) ـ الذي يفيد التمليك والاستحقاق، أي: وجوب حق الحمد بالله سبحانه وحده ـ أبلغ أثرا من خطاب الحضور الذي لا يسمح بذكر لفظ الجلالة، لا في هذا الموضع ولا في أي موضع آخر من القرآن الكريم.

ثالثا: المضمر التوحيدي

في أمّ الكتاب أدب توحيدي عجيب، يمكن تلمسه منذ البدء بدعاء التحميد، حين خصت الحمد بلفظ الألوهية ثمّ وصفته بعنوان الربوبية، وفيه إشارة إلى أنّهما من مختصاته سبحانه لا انفصال لهذا عن هذا كما ادعى الوثنيون، فقوله تعالى (ربّ العالمين) أي: المالك الحقيقي المدبر للعوالم كلّها كعالم الإنس وعالم الجن وعالم النبات وعالم الحيوان وهكذا، وجمعها بصيغة العقلاء على سبيل التغليب، ولفظ الرب معناه المالك المدبر، ولفظ العالَم بفتح اللَام كقالَب غالبًا ما يستعمل للدلالة على الآلة كقالب وطابع، فجعل العالم من باب النكتة البلاغية كالآلة للعلم بالصانع أو العلم بالحقائق، وأنّت ترى أنّ الآية جمعت لفظي الألوهية والربوبية في أوّل افتتاح السورة إشارة إلى انفراده تعالى بهما وحده وأنّهما لا ينفصلان كما ادّعى المشركون توزيع ربوبيته على شركائه ممَّا اتخذوا معبودين من الأصنام ونحوها، وجملة (رب العالمين) الصفة الأولى لله تعالى.

ومن خبيئات الأدب التوحيدي ما جاء في قوله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وفي قراءة أخرى مَلِك، وكلّاهما يعنيان الملك الحقيقي لله تعالى، وإضافة لفظ الملك إلى يوم الدين الذي يراد به يوم القيامة لأنّه اليوم الذي لا تخويل فيه للملك بأحد فقد انقضى دور عالم الدنيا، أما يوم الدين فهو يتحقّق فيه إهلاكه لكلّ مالك سواه متصرف فيه تصرف الحاكم المطلق للبدء في الحساب والجزاء، وبذلك يفهم سر إيراد الفصل والإيعاد بيوم الجزاء بعد ما تقدّم من معاني الربوبية والرحمة لله تعالى لئلا يكون ذلك

إغراءً للمكلّفين بإهمال التكاليف الشرعية واتكالًا على عطفه بعباده. وفي مضامين الصفات التي ذكرتها الآيات رد على مزاعم المشركين كتعدد الآلهة وإنّكار المعاد.

وفي تقنية العدول في قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مضمر توحيدي من شؤونه سبحانه وحده، فتغيير الكلّام من الغيبة فيما تقدّم إلى خطاب الحضور إلى الله تعالى مشعر بأنّ الإقرار بذكر الحمد المستحق لله تعالى وما تلاه من صفات الربوبية أنّزلت العبد من الإخبار والثناء على الله سبحانه منزلة المستحق المؤهل لأن يخاطب ربه خطابًا حضوريًا، وتقديم ضمير النصب على فاعله في كلّتا الجملتين للاختصاص، فقصر عبادته له سبحانه عليه وحده، فلا معبود سواه، وقصر الاستعانة في كلّ ما يتطلبه العبد من شؤونه عليه، وقدم العبادة على الاستعانة؛ لأنّ العبادة الحقَّة سبيل إلى طلب الاستعانة، والعبادة معناه الخضوع والتذلل، ولا تكون إلا لله تعالى لاستحقاقه ذلك فهو الخالق الذي أفاض الوجود على من لا وجود له ولم يهمله بل خلقه ودبّر له شؤونه، وللعبادة مقامات تتحصل بطبيعة عمق المعرفة بالله تعالى، وإلى هذا المعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: ((إن قومًا عبدوا الله رغبةً، فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار)). [٨]

والاستعانة طلب المعونة فيما لا يقدر عليه غيره سبحانه، وهي غير الإعانة ولذلك استعملت، والوصل بينهما لما بينهما من اتفاق في الحكم والمعنى، والفاعل للفعلين مقدر راجع إلى المؤمنين.

رابعا: المضمر الوظيفيّ

في صيغة التحميد مضمرات وظيفية يمكن الاستدلال عليها بتحليل صيغتها لغويا، فلفظ الحمد معناه الثناء على الجميل الاختياري، وعن الفرق بين الحمد والشكر قال في المفردات: ((الحمد لله تعالى الثناء عليه بالفضيلة وهو أخصّ من المدح وأعمّ من الشكر، فإنّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، وممَّا يقال منه وفيه بالتسخير فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأوّل، والشكر لا يقال إلّا في مقابلة نعمة فكلّ شكر حمد وليس كلّ حمد شكرا، وكلّ حمد مدح وليس كلّ مدح حمدا)).[٩]

وتعريف الحمد للجنس والاستغراق، واللام في (لله) تفيد معنى الاختصاص، والتصريح بلفظ الجلالة للتعظيم، ولينت لامه بسبب الكسر للتخفيف، ومعنى كون الحمد لله تعالى بلحاظ أنّ جنس الحمد له سبحانه، وأنّ كلّ ما يكون منه جميل محمود، وتقديم الحمد على الظرف (لله)؛ لأنّ المقام مقام الحمد لذلك رفع على الابتداء فدلت صيغته الإخبارية بالجملة الإسمية لتدلَّ على دوام ثبوت الحمد لله سبحانه وثبوته، ولا مانع من تضمنه معنى الإنّشاء في الثناء على الله عز وجل، وفي خصوصية ذكر الله سبحانه تمهيد لإيراد ما بعده من صفات عليه لهذا الاختصاص بالحمد.

وفي نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عليه السلام: ((الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحا لذكره، وسببا للمزيد من فضله ودليلا على آلائه وعظمته)).[١٠]

ويبدو أنّ هذا التركيب (الحمد لله) يهذّب العبد في طبيعة الدعاء والتناجي مع خالقه سبحانه، فهو بعد أن يقرّ بالفروض الواجبة الثابتة المعاني لله تعالى وحده من الحمد وما تلاه من صفات ملك الله تعالى للعالمين وصفات الرحمة العامة (الرحمن) والخاصة (الرحيم) أهّله ذلك الإقرار بالخطاب لخطورة معنى العبودية والاستعانة فتغير الخطاب، فكان (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) صريحا واضحا لا تأويل فيه، وحادًا في الإسناد وصارما في تقديم ضمير النصب (إيّاك) مرتين.

نعم هو إقرار وتهذيب للنفس قبل الطلب الدعائي (اهدنا)، يشعر الداعي بعظمة ما يطلب، فهذا اللفظ القرآني الذي لم يرد بصيغة التكلّم مخاطبًا به الله تعالى إلّا في سورة الفاتحة غزير المعاني وكثير المشتقات؛ لما يحمل من فكر إيماني جديد، بل من صفات الأنبياء والمؤمنين الممدوحين كما في قوله تعالى (اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [يس ٢١]، وقوله (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة ١٥٧]، وقوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام ٨٢].

ولا ريب في ألاّ نفع للإنسان من دون عناية الله سبحانه ورعايته وأخذه لعبده نحو سبيل الهدى، مهما بلغ من العقل أو الثروة أو الجاه والسلطة ما بلغ، كلّ ذلك لا قيمة له إذا ما ترك المرء لنفسه من دون شمول برحمة الله تعالى؛ لأنّ طرق الضلالة كثيرة، والحياة في نهاية المطاف فانية، ولهذا نجد تفصيلا ثرَّ المعاني في طبيعة هذه الهداية لهذا (الصراط) من جهة العباد

المخلوقين لم يتكرّر في السور الكريمة الأخرى، أما توصيف الصراط المقترن بالله تعالى فقد ورد في قوله سبحانه ((وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)) [الشورى ٥٢-٥٣].

إذًا هو صراط موصوف بالرحمة والعناية الإلهية وتشديد في النفي للمشمولين بغير ذلك من الذين وقعوا تحت غضب الله تعالى أو من أهل الضلالة، أما في سورة الشورى فهو صراط موصوف بالنسبة إلى الله تعالى لاقتضاء السياق ذلك.

ولأنّ المقام مقام دعاء وتهذيب في تعليم العبد كيفية خطاب ربه كان أنّ اقتضى المعنى استعمال تركيب خطابي في مقام الرحمة (أنّعمت عليهم)، في حين عدل عنه إلى خطاب الغيبة في موضع الغضب والضلال (غير المغضوب عليهم)، ولم يكن سياقه مستمرًا كسابقه فلم يقل: غير الذين غضبت عليهم ؛ لاقتضاء الدلالة ذلك التركيب.

وفي فعل الهداية في قوله تعالى ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ مضمر دعائي فظاهر الفعل الأمر وتأويله الدعاء بطلبها من الله تعالى، ومعناه الإرشاد إلى الثبات على الدين، وتعديته بنفسه إلى مفعولين يؤيد معنى الإيصال والتبليغ، وجملته غرض السورة وما مهّد له من تقديم فروض التحميد، ويبدو أنّ لفظ (الصراط) منصوب على نزع الخافض هنا بعد الفعل (اهدنا)، إذ في الغالب من مواضع استعمال هذا الفعل استعمال التعدية

بحرف الجر (إلى) نحو قوله تعالى (واهدنا إلى سواء الصراط) [ص ٢٢]، ولاسيّما مع الفعل المضارع (يهدي) نحو قوله تعالى ((يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [بقرة ١٤٢، ٢١٣] ، [النور ٤٦] ، والظاهر أنّ الحرفين (إلى) واللام يتعاقبان في الاستعمال، فقد يتعدى بنفسه أو بـ (إلى) أو باللام، كقوله تعالى ((قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ)) [يونس ٣٥].

والصاد في لفظ الصراط أصله السين مشتق من السرط وهو الابتلاع[١١]، وصفته بالاستقامة لضمان مؤدّاه إلى القصد الصحيح، وخصوصية ذكر الصراط المستقيم من دون غيره من الألفاظ القريبة من معناه كالسبيل والطريق؛ لأنّها أخص في المعنى من مرادفاتها فهي تكاد تكون مصطلحًا قرآنيا لمعنى الدين وطريق الحقّ وولاة أمره من النبي ﷺ، ولاسيما بالنظر التفصيلي لما بعده من الآية، وإسناد لفظ المستقيم إلى الصراط مجاز عقلي للمبالغة.

وقيد لفظ الصراط بجملة من الصفات التوضيحية فقوله (صراط الذين أنّعمت عليهم) تقييد للفظ بأسلوب البدل من قوله (الصراط المستقيم) فائدته التأكيد والتمكين، فهو طلب صراط خاص ليس كأيِّ صراط بل من نوع الذين شرفوا بنعمة ربّهم عليهم وهم الذين ذكرهم الله تعالى، فاستحقوا تعريف الصراط بهم في قوله (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) [النساء ٦٨]، والنعمة لفظ جامع لكلّ ما فيه راحة العيش، و(على) مجاز

استعلائي وضمير جمع الغائبين عائد إلى المؤمنين مفهوم من سياق الآية.

وللصراط في تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام خصوصية مستفادة في التفريق بينها وبين مرادفاتها، فعن الصادق عليه السلام في المعاني أنّه قال: هي الطريق إلى معرفة الله سبحانه وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرَّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه في الآخرة فتردّى في نار جهنم))[١٢]، وهذا التحديد للصراط ينطبق عليه المصداق في تعريفه.

وفي خفض حرف النفي (غير) في قوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) لأنّ الجملة صفة لاسم الموصول (الذين أنّعمت)، ولفظ الغضب صفة انفعالية يراد به بيان ما يترتب عليه من آثاره كالعقاب والإبعاد من رحمة الله سبحانه، لذلك تغيّر الكلّام من خطاب الحضور في قوله (أنّعمت عليهم) إلى صيغة المفعول (المغضوب عليهم)، فلم يقل: غير الذين غضبت عليهم، إذ لا يصح نسبة الغضب إليه سبحانه في مقام الإنّعام والرحمة، وتعريف لفظ المغضوب يراد به عموم من يغضب الله عزَّ وجلَّ عليهم فيطردهم من رحمته.

وقوله (ولا الضالين) جملة عطف لنفي أهل الضلال من جملة المنعم عليهم، واللام في (الضالين) للجنس، والضلال يطابق لفظ الهداية في المعنى، ويراد به إضاعة سبيل الهداية ويدخل فيه الشرك والكفر.

الخاتمة:

خلصت الدراسة ممَّا سبق في تحليل المعاني المضمرة لسورة الفاتحة إلى النتائج الآتية:

أوّلًا: إنَّ المعاني المضمرة أوسع من أفهام التدبر في آي القرآن العظيم عامة وفي سورة أمِّ الكتاب خاصة، وأنّها لا تنتهي.

ثانيًا: إنّنا بحاجة إلى مزيد من التدبر القرآني لاكتشاف خبيئات المعاني في السورة.

ثالثا: تحدّدت أشكال المضمرات من المعاني بأربعة أشكال هي: مضمرات البسملة، ومضمر العدول، والمضمر التوحيدي، والمضمر الوظيفي.

رابعا: تفرّعت عن كلّ مضمر مجموعة عظيمة من المعاني التي زخرت بها السورة المباركة.

خامسا: يُعدّ المنهج التحليلي أقدَر المناهج في توظيف العلوم المختلفة في بيان المعاني القرآنيّة.

الهوامش:

١. الطبرسي ، ظ. مجمع البيان: ١/ ٤٧ .
٢. الصدوق ، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ٢٧٠.
٣. ظ. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ٢٧٠.
٤. السيوطي ، الإتقان: ١/ ٢١٢.
٥. ابن ماجة ظ. سنن: ١/ ٦١١، تفسير البيضاوي: ١/ ٢٨.
٦. الصدوق ، التوحيد: ٢٣٢.
٧. مفردات غريب القرآن: ٢١.
٨. نهج البلاغة : ٤/ ٥٣.
٩. مفردات غريب القرآن: ١٣١.
١٠. نهج البلاغة: ٢/ ٥١.
١١. الفراهيدي ،ظ. معجم العين : ٧/ ٢١١ ، لسان العرب: ٧/ ٣٠٨.
١٢. الصدوق، معاني الأخبار: ٣٢.

المصادر والمراجع:

١. ـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الإتقان في علوم القرآن، (ت ٩١١ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني – القاهرة ١٩٦٧م.

٢. ـ البيضاوي، أبو سعيد، عبد الله بن عمر بن محمد (ت ٦٨٥هـ) أنّوار التنزيل وأسرار التأويل،، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٣. ـ أبو جعفر الطوسي (ت٤٦٠هـ)،التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب القصير، المطبعة العلمية – النجف الأشرف، ١٩٥٧ م.

٤. ـ الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد علي بن الحسين بن بابويه (ت ٣٨١هـ) التوحيد، ، المحقق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات قم.

٥. ـ ابن أبي الحديد، أبو حامد، عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ) شرح نهج البلاغة،، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربيّ، القاهرة، ١٩٥٩ م.

٦. ـ الفراهيدي، أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ)، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسّسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

٧. ـ الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)،عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، مطابع مؤسّسة الأعلمي - بيروت – لبنان، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م.

٨. ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، لبنان ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٥م.

٩. ـ الطبرسي الفضل بن الحسين (ت ٥٤٨هـ)،مجمع البيان في تفسير القرآن، حققه وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٠. ـ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق (ت ٣٨١هـ)، معاني الأخبار، عني بتصحيحه علي أكبر الغفاري، منشورات مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة. ١٣٣٨ هـ.

١١. ـ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)،المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.

١٢. ـ السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان ١٩٧٢ م.